



الجمعة 23 أغسطس 2019 03:00 م
كتب: د. جابر قمحة

د. جابر قمحة

ليس هناك أبلغ من الخطباء والشعراء إلا «التاريخ» لأن كلمة الشاعر والخطيب تختلف - قيمة ومصداقية - باختلاف اللغات، واختلاف الفكر والثقافة والمشاعر عند المبدع والمتلقي. أما كلمة التاريخ فواحدة، وواقعية، وحاسمة» لأنها تقدم الدليل الثابت، والبرهان الذي لا يستطيع منصف أن ينكره. وهذه هي بلاغة الحال التي تتفوق علي بلاغة المقال.

وتأسيسًا علي هذا الحكم نقول: إن حضارة الغرب حضارة عدوانية وحشية، نفعية، تقيم بناءها ومصالحها علي حساب استنزاف الأمم، وتخريب الدول، وتدمير الشعوب: أوطانًا، وعقائد، وأفكارًا، وثقافات.

حضارة إنسانية أصيلة

وعلي النقيض عاشت الحضارة الإسلامية.. حضارة إنسانية تؤدي رسالة البناء والتعمير والتنوير.. وهذا الحكم علي الحضارتين لا تعصب فيه، ولا انحياز، ولا إسراف، ولا شطط لأنه حكم التاريخ ببلاغة واقعية حاسمة فائقة.. لا تعرف التزييف والتزوير.

وما بالك بدين يجعل من أساسيات «دستور الحرب» الانتصار للقيم الإنسانية، والتخلي «بأخلاق الفروسية» في صورتها المثلى، فيحرم علي الجندي المسلم المقاتل: أن يخون، أو يغدر، أو يغل (ينهب)، أو يمثل بالجنت، أو يقتل الأطفال والنساء والشيوخ، أو الرهبان المنقطعين للعبادة، أو البهائم والحيوانات، ويحرم عليه التخريب بقطع النخل والشجر، وحرق البيوت والمنازل والمحلات، وعليه أن يطيع الله في السر والعلن، والسراء والضراء.

إنها توجيهات النبي صلي الله عليه وسلم وخلفائه للقادة والجيوش المسيرة لقتال أعداء الإسلام والأمة. وقد أخذ المسلمون أنفسهم بها في حروبهم، وفتوحاتهم، وتعاملهم مع الآخرين. بينما عاش الغرب علي العدوان الذي لم يتوقف علي مدار التاريخ.

مذابح وحشية ونهب وتخريب

والأمثلة الدالة علي صدق هذا الحكم أكثر من أن تحصى، ونكتفي منها بمثال واحد في هذا المقام. وهو ما ارتكبه الصليبيون من جرائم عندما سقطت القدس في أيديهم في أواخر شعبان من سنة 492هـ. يقول ابن الأثير في كتابه «الكامل»: «... وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعًا، يقتلون فيه المسلمين، وقتلوا في المسجد الأقصى ما يزيد علي سبعين ألفًا، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم، وزهّادهم ممن فارق الأوطان، وجاور بذلك الموضع الشريف.. وأخذوا من عند الصخرة نيفًا وأربعين قنديلًا من الفضة، وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمئة درهم، وأخذوا نونًا من فضة وزنه أربعة رطلًا بالشامي، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلًا، ومن الذهب نيفًا وعشرين قنديلًا، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء...».

ومن أعرب ما ذكره ابن الأثير أن القسيسين من الصليبيين أخذوا يقطعون قطعًا من صخرة الأقصى «ويبيعونها للفرنج الواردين إليهم من داخل البحر للزيارة، يشترون بوزنها ذهبًا رجاء بركتها، وكان أحدهم إذا دخل بلاده باليسير منها بني له كنيسة، ويجعل في مذبحتها...»

فما قام به الصليبيون يمثل عدوانًا وحشيًا دمويًا سافرًا، ولم يكن حرب مواجهة بين جيشين، لقد قتلوا سبعين ألف مسلم داخل المسجد منهم خيرة الأئمة والعلماء، وغرباء جاءوا من بلادهم لتلقي العلم والبركة، ونهبوا محتويات المسجد ودور العبادة والمدارس، وأموال الناس، واقتلعوا مساحات واسعة من حرم الأقصى، وبنوا فيها مساكن ومخازن وراحت.

الفتح العظيم

وبعد هذه المأساة بواحد وتسعين عامًا هزم صلاح الدين الأيوبي جيوش الصليبيين في حطين هزيمة نكراء، وفرّ عشرات الآلاف منهم إلى القدس حتى اجتمع منهم داخل أسوارها قرابة ستين ألفًا، وعقدوا لواء القيادة لفارسهم «باليان ده إيبالين»، وهو من الذين فروا من حطين، وأمه البطريرك الصليبي في القدس بما تحتاجه الحرب، وبما يرضيه وبشره، حتى لقد جمع له سبائك الذهب والفضة، وزينة الكنائس، ولم يستثن من ذلك ما زينت به الكنائس من ذهب وفضة، وجواهر.

وفي سنة 583هـ - بعد انتصاره المبين في حطين - زحف صلاح الدين إلى بيت المقدس، وحاصرها، ونصب «المجانيق» (قاذات الصخور) خارجها.. وبدأ النقبون ينقبون أسوارها (أي يفتحون ثغرات في الأسوار بالمعاول)، فعلا صراخ الرجال وبكاء النساء والأطفال من الصليبيين داخل المدينة، وألقي كثير من الرجال السلاح خوفًا ورهبة. فاتفق رأيهم علي طلب الأمان من صلاح الدين، وتسليم بيت المقدس، واستنثار صلاح الدين أصحابه، فأجمعوا علي إجابتهم للأمان، وعقدت اتفاقية تسليم المدينة يوم الجمعة 27 من رجب 583هـ.

إنسانية الفاتحين

؛ظهرت إنسانية صلاح الدين في التعامل مع الصليبيين في مظاهر وسلوكيات متعددة من أهمها:

- 1- أعطى صلاح الدين للصليبيين مهلة طويلة للخروج من بيت المقدس مدتها أربعون يومًا، ولهم الحق أن يحملوا معهم ما يشاءون من أموالهم وأملاكهم (عدا السلاح والخيل). وسمح لهم أن يبيعوا ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم، وذخائرهم، وأموالهم، وعقاراتهم.
- 2- علي كل صليبي يغادر بيت المقدس أن يدفع مبلغًا زهيدًا قدره عشرة دنانير للرجل، وخمسة للمرأة، وديناران للطفل.
- 3- أمّن نساء ملوك الفرنجة وأمراءهم، وسمح لهن بالخروج، ومعهن من الخدم والحشم، والعبيد، والجواري، والأموال، والجواهر النفيسة الكثير.. والكثير.
- 4- أطلق ملكة القدس، ومعها خدمها، وحشمها، وأموالها، وكان زوجها يحكم نيابة عنها، وأسره صلاح الدين، وحبسه بقلعة نابلس، فاستأذنت صلاح الدين في المسير إلى زوجها هناك، فأذن لها، وأقامت عنده.
- 5- كان صلاح الدين قد قتل «أرناط» (رينو دي شاتيون) بيده بعد أسره، لأنه خان الميثاق الذي عقده معه، وقام بقتل أسري المسلمين، وهدد بالزحف إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، ونبش قبره. فأنته زوجته، فشققت في ولد لها مأسور، فوافق صلاح الدين علي إطلاقه، بشرط أن يسلم له الصليبيون قلعة «الكرك»، فسارت إلى الكرك، ومعها أموالها، وعبيدها، وحشمها. ولكن الفرنجة رفضوا طلبها.
- 6- سمح صلاح الدين بخروج البطريرك الأكبر، ومعهم من الأموال والمتاع ما يصعب وصفه وإحصاؤه. وأشار عليه بعض قواده أن يأخذ ما معه ليقوّي به المسلمين، فرفض، وقال «لا أعدر به أبدًا». ولم يأخذ منه إلا عشرة دنانير، كأى واحد من عامة الصليبيين.
- 7- وخوفًا من قُطّاع الطرق علي سلامة المغادرين، أرسل صلاح الدين معهم قوة من جيش المسلمين تحميهم إلى أن يصلوا إلى مدينة صور. وللأسف خانوا وغدروا، وانضموا إلى قوات الصليبيين بها، وقاتلوا معهم جيش صلاح الدين الذي حاصر المدينة بعد ذلك وعجز عن إسقاطها.
- 8- أما النصاري من أهل القدس فسمح لهم صلاح الدين بالبقاء في المدينة، ودفع الجزية.

التطهير والتعمير

وبعد هذا الخروج الكبير باشر صلاح الدين بنفسه إعادة المدينة المقدسة إلى طهرها، ونقاها، وعمارها، فأمر - كما يقول ابن الأثير - «بتطهير المسجد والصخرة من الأقدار والأنجاس» وأزال المساكن والمخازن والمراحيث التي بناها الفرنجة عربي الأقصى، وعلي مساحات من حرمه. ولما كان الجمعة الأخرى (4 من شعبان 583) صلى فيه المسلمون الجمعة، ومعهم صلاح الدين، وصلى في قبة الصخرة.. ثم رتب فيه خطيبًا وإمامًا برسم الصلوات الخمس، وأمر بإحضار المنبر الذي كان نور الدين محمود قد أمر بصنعه من عشرين عامًا للمسجد، ومات دون أن يتحقق أمله في نقله إليه. وأمر ببذل أقصى الجهود في ترصيف المسجد، وتحسينه، وتجميله وعمارته، واستخدم في ذلك الرخام الفاخر، وأظهر الصخرة (وكان الفرنجة قد غطوها بالرخام)، وأزال من فوقها الصليب الذهبي الصخمي، ووضع هلالًا هائلًا مكانه. وأقام ببيت المقدس إلى الخامس والعشرين من شعبان، يرتب أمور البلد وأحواله، وأمر ببناء الرُّبَط والمدارس قبل أن يغادر البلدة المقدسة لمواصلة الجهاد، وتحرير بقية المدن والقرى التي احتلها الصليبيون من عشرات السنين.

إنها كلمة التاريخ

هذه كانت كلمة التاريخ وبيانه البليغ الواقعي الحاسم لأنه لا يشوبه التزوير والتزييف. وليرجع القارئ إلى صورة القدس تحت وطأة العدوان الصليبي، وصورة القدس بعد أن استعادها المسلمون ليتبين الفوارق الهائلة بين حضارة قامت علي التخریب والتدمير، وحضارة عاشت للتعمير والتنوير.